قراءة عبر العلاقة النحوية
في نص نسيم السعداوي

محمد الصاوي

شاعر وناقد من مصر

يئنّ القصب
بأحضان الرّيح،
دون سكين صانع الناي!

نسيم السعداوي

مفتتح : (فليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

القراءة :

يمكن القول إن العلاقة النحوية الأولى التي بدأ بها السياق " يئن " تكنز لنا أكثر من مسار دلالي عبر تأويل زمنية المضارع التي يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة مسارات :

- المسار الأول " يئن القصب أي الآن " فنكون أمام زمنية المضارعة الآنية التي تقوم على اللحظة المباشرة الحالية التي يحدث فيها الفعل فالأنين ليس قديما وليس دائما وليس معتادا إنما هو حادث الآن فى التو.

- أما المسار الثاني فنكون أمام تأويل زمنية المضارعة " يئن القصب أي دوما فهذى عادته ودأبه وصفته المستقرة فيه وهى الصفة التي يعززها تأويل المضارعة بزمنية الدوام والاستمرار.

- أما المسار الثالث فنكون أمام تأويل زمنية المضارع " يئن القصب يوما ما أو في آتى الوقت " فنكون أمام زمنية المضارعة كمستقبل أي أن الأنين لم يحدث بعد لكن قائل القول ينبئ بحدوثه لعلة فنية يقصدها.

- إذن يمكن القول إننا هنا أمام مسارات ثلاث لزمنية المضارعة الآنية والصفة المستقرة والمستقبل حيث تمثل كل زمنية مسارا دلاليا وجماليا ونفسيا مختلفا وربما تذهب القراءة إلى عدم الانحياز إلى مسار بعينه من مسارات المضارعة حيث يمكن السير إلى الأمام في قراءة النص حتى تتجلى اللوحة أكثر.

- ثم ولنتأمل علاقة ال التعريف في سياق الجملة الفعلية " يئن القصب " وهو السياق الذى ينحو بتأويل ال التعريف إلى مسارين ينشأ من تأويل كل مسار منهما سياق جمالي ونفسى مختلف بمعنى أننا حين نكون أمام ال القصب التي هي للعهد فنكون أمام قصب بعينه يعرفه قائل القول تحديدا.

- أو أن نكون أمام ال التي هي للجنس فنكون أمام لوحة أخرى تماما نكون أمام القصب أيا كان ذلك القصب فلا يكون القائل قاصدا لقصب بعينه إنما يكون قاصدا كل قصب سواء عرفه أم لا.

- وربما قبل أن نرتحل في لوحة النص وجب أن نقف أمام علاقة جملة المضارعة " يئن القصب " حيث نكون أمام مسارين مختلفين للتخيل فيكون المسار الأول قائما على أن الأنين واقع بالفعل وهو ما يجعلنا أمام صورة حسية تنشر ظلها على علاقة الفاعل " القصب " فتنشأ هنا الاستعارة التي تجسد لنا القصب وقد استحال كيانا حيا بصيرا يئن كما يئن الحى البصير.

- أو أن نكون أمام المسار الآخر الذى يقوم على تأويل الأنين في لوحة النص على أنه حدث مجازى فلا أنين واقع فعلا وإنما هو ما يراه في حركته قائل القول.

- وهو ما يردنا إلى ملاحظة رئيسة من ملاحظات العلاقة النحوية والتي تتمثل في كون السياق هو جملة مقول القول وهى جملة يلزمها فاعل أي قائل القول ومقول له وسياق للقول يتكون من زمنية القول ومكانه والحافز على حدوث ذلك القول.

- بمعنى أن القائل هنا هو الذى يخبرنا أكان الأنين حقيقة فى بصيرته وواقعا حسيا أم أنه يقول لنا أن ما يراه في القصب يشبه الأنين.

- لكن إذا كان القائل قد أخبرنا بجملته فما الذي يمكن للعلاقة النحوية أن تتبصر في تلك الجملة إن العلاقة النحوية هنا تقوم على تبصر مساري التأويل معا ثم يمكنها أن تنحاز إلى مسار دلالي منهما وبالتالي مسار جمالي ونفسي أو أن تكتفي بكشف وجهي التأويل للملتقى ويكون له أن يتبصر هو المسار الذي يختاره.

- فيكون عندها مختارا بصيرا إما أن يكون منحازا إلى أن الأنين واقع بالفعل كصورة حسية يتجسد فيها القصب كيانا حيا أو أنه يتخيل حركة القصب أنينا ما يعنينا هنا أن الجملة النحوية تحتمل هذين الوجهين وللمتلقي أن ينحاز إلى أيهما.

- ثم ولندخل الآن إلى لوحة أخرى لعلها تضيء لنا مشهد أنين القصب وتجلو لنا علته وتكشف لنا سياق القول حيث نتلقى سياق " بأحضان الرّيح «.

- وهو السياق الذي يقوم على الاتصال بجملة المضارعة عبر علاقة الباء " بأحضان " فيسيِّج الأنين عبر علاقة الحال سبه الجملة فنكون أمام التأويل " يئن القصب حال كونه واقعا تحديدا في أحضان الريح «.

- أي أن الأنين معقود باحتضان الريح ولا يكون واقعا كما يخبرنا السياق إلا حين تحتضن القصب فيكون الأنين.

- وهنا يمكن القول إن سياق علاقة الحال " بأحضان الريح " هو سياق يأخذنا إلى مسارين جمالين مختلفين فيكون المسار الأول قائما على الصورة الحسية التي تتجسد فيها الريح كيانا حيا بصيرا يحتضن القصب ذلك الاحتضان الى ينتج عنه الأنين.

- أو أنكون أمام مجازية الصورة التي تقوم على أن حركة الرياح تشبه حول القصب هي حركة تشبه الأحضان.

- وهكذا نكون أمام مساري تخييل الاستعارة التي تجسد الريح كيانا حيا حسيا متجسدا عاشقا والمسار الآخر مجازية الرياح وحركتها التي ربما كانت أشبه بالأحضان فالحركة هنا والاهتزاز استعارة يتجلى لنا منها مشهد التشبيه.

- إذن يمكن القول إن السياق هنا يقول لنا عن القصب مقولة شجية بحق فهو حين تمسه الريح كأنها العاشق يئن ولا يطيق أحضانها وهى صورة نيرة بحق لكن ما علتها
- هنا فلنتأمل هذا الختام البديع حيث نتلقى علاقة الحال شبه الجملة حيث نتلقى " دون سكين صانع الناي «.

- وهو السياق الذى يمثل لنا علاقة الحال الثانية فيكون التأويل كما يلى " يئن القصب دوما او الآن أو يوما ما حال كونه واقعا في أحضان الريح وحال كونه دون سكين صانع الناي «.

- إذن علاقتي الحال شبه الجملة " بأحضان الريح " وعلاقة " دون سكين صانع الناي" هما العلاقتان اللتان تسيِّجان الأنين بمعنى أن علاقة الأنين لا تكون إلا مع علاقتي الحال أ احتضان الريح وغيبة سكين صانع الناي لكن لماذا ؟.

- هنا ترجع القراءة إلى العلاقة الأولى حيث تأويل علاقة الفاعل " القصب " بالكيان الحى البصير الذى يتشهى أن يكون نايا وهو مازال عودا أخضر تهزه الريح على جرف نهر ما أو بركة بمعنى أن علاقة الفاعل " يئن القصب " والتي تكنز لنا الاستعارة المكنية إنما هي في الحقيقة تكنز لنا استعارة أخرى أكثر عمقا وهى استعارة القصب للحالة الإنسانية التي يكون فيها التوق والحلم والأمنيات وتلك المكابدة التي يكابدها الحالم الآمل ما بين ريح الأقدار وأحضانها الأليمة وغيبة مخاض السكين الذى يشق القلب عن درته التي هي فنه كما يشق صانع الناي العود الأخضر اللين عن الشدو.